هـــوس الحـــرب فـي الأدب

الأستاذة : سميـــرة بوقـــرة
قسم الآداب و اللغة العربية
جامعة باجي مختار-عنابة-

ملخـــص:

حظيت الحرب باهتمام و عناية نتيجة طابعها الكونيّ، و صار لها أدب خاص عرف بـأدب الحرب شمل كلّ مجتمعات الدّنيا على الرّغم من اختلاف الرّؤى و القناعات.

تهدف هذه الدّراسة إلى الإحاطة بحركيّة ظاهرة الحرب و مختلف تمظهراتها و تجلّياتها في الأدب محاولة الوقوف على العلاقة الحميميّة الّتي أفضت إلى ذلك التّلاقح الّذي أمّن للأدب أنماطا سرديّة غير معهودة.

فهل أحسن الأدباء استثمار هذا الهذيان(الهوس) الواعي؟

و هل عاد هذا الاستثمار بالنّفع على الأدب؟

الكلمات المفاتيح: الأدب- الحرب-العلاقة-الاستثمار.

Résumé

En raison de son caractère universel, la guerre a eu un intérêt considérable et une attention particulière est devenue une littérature spécifique, connue comme la littérature de guerre qui inclut toutes les sociétés du monde, malgré la différence des vues et des convictions..

Cette étude a pour but d'englober la mobilité du phénomène de la guerre, et de ces différentes manifestations dans la littérature, dans une tentative de se tenir sur la relation intime qui a conduit à la fécondation croisée, qui a sécurisé à la littérature des schémas narratifs inhabituels.

Est-ce que les littéraires ont bien investit ce rêve conscient ?

Est-ce que cet investissement a fait du profit à la littérature ?

Mots clés :littérature , guerre, relation , investissement.

خاضت البشريّة منذ وجودها عدّة حروب كشف التّاريخ عن ملازمتها للإنسان كملازمة الرّوح للجسد من جهة، و تداخل الحرب و السّياسة من جهة أخرى.

جاء في لسان العرب، الحَرْبُ: نقيض السّلم، و رجل حَرْب و مِحْرَبٌ و مِحْرَابٌ، شديد الحرب، شجاع، و قيل مِحْرَب و مِحْرَابٌ: صاحب حرب، و قوم مِحْرَبَة و رجل مِحْرَبٌ؛ أيّ محارب لعدوّه، و الحَرَبُ: نهب مال الإنسان و تركه لا شيء له .[1]

تلوّنت الحرب بألوان المراحل الّتي مرّت بها فاختلفت لزاما تعاريفها باختلاف مجالاتها(السّياسيّ–العسكريّ–التّاريخيّ–الاقتصاديّ...).

ورد أبسط تعريف للحرب فيما نعتقد بالقول إنّها"صراع بين مجموعتين كبيرتين تسعى إحداهما لتدمير الأخرى أو التّغلّب عليها."[2]

يرى أصحاب السّياسة أنّها"ظاهرة استخدام العنف و الإكراه كوسيلة لحماية مصالح أو لتوسيع نفوذ أو لحسم خلاف حول مصالح أو مطالب متعارضة بين جماعتيّن من البشر."[3]

أمّا الحرب بمعناها العسكريّ فهي"القتال المسلّح الّذي ينشب بين دولتين أو أكثر في سبيل تحقيق هدف سياسيّ أو عسكريّ."[4]

يبدو التّداخل واضحا بين المجالين السّياسيّ و العسكريّ، حتّى أنّ المنظّر العسكريّ الألماني كلاوزفتز Clausevitz رأى أنّ الحرب امتداد للسّياسة بوسائل أخرى، و عرّفها على أنّها"عمل عنف يقصد منه إجبار خصومنا على الخضوع لإرادتنا."[5]

يظهر أنّ الأطماع السّياسيّة بالتّظافر مع أطماع أخرى تؤدّي لإشعال فتيل الحرب في عديد الأحيان، فثمّة نظريّات تقول بأنّ العوامل الاقتصادية هي العلّة الأوليّة لجميع الحروب و أنّ معظم الأسباب مجرد أقنعة خادعة لما يكمن في الخلف، بل إنّها مجرد بواعث ظاهريّة لبواطن اقتصاديّة و مباعث أساسيّة تقوم على المنافع و المصالح و الأطماع.[6]

ويرى المؤرّخون أنّ"الحروب و أنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله، و أصلها إرادة انتقام بعض البشر من البعض."[7]

هُم بهذا يؤكّدون على ثنائيّة حميميّة لا يخلو منها مجتمع بشريّ و كأنّها قدره المحتوم، إنّها ثنائيّة(الإنسان–الحرب).

بالموازاة للمؤرّخين يرى أصحاب النّزعات الفلسفيّة بأنّ"الحروب ذروة العدوانيّة الجماعيّة، هي الظّاهرة الأكثر غرابة و فرادة بين كل الظاهرات الاجتماعيّة."[8]

يقرّ هذا التّعريف بجماعيّة الظّاهرة و طابعها البشع الّذي منحها صفات خاصّة تمنع تداخلها مع غيرها و إن شاركتها العنف، و منه بحسب رأيهم فإنّ حياة كل المجتمعات البشريّة يتحكّم فيها عالمين أوّل إيجابيّ يكرّس العمل و ثانٍ سلبيّ يكرّس التّدمير و الهدم بفعل القتل المنظّم و المدبّر.

يستخلص من كلّ هذه التّعاريف طابع الحرب المعقّد، فهو مفهوم مركّب تتجاذبه أطراف عدّة يسهم كل منها في بلورة جوهر الظّاهرة الانسيابيّ و المتعدّد الأبعاد، وبالتّالي فإنّ الوقوف على مفهوم موحّد للحرب أمر صعب خاصّة في ظلّ الهجرة و التطوّر اللّذين خضع لهما المصطلح، مع ذلك سنحاول تقديم تصوّرنا و تعريفنا الخاص للحرب فنقول إنّها هذيان واع و شهوة ماديّة غايتها السّيطرة على ما عند الآخر، أو ببساطة إنّها صراع ماديّ فتّاك لا بقاء فيه لاثنين، مع ذلك يبدو لنا أنّ الكلّ فيها خاسر و إن أبدى الواقع خلاف ذلك، فالمنتصر يخسر جنوده و عتاده و المنهزم يخسر أرضه.

2-**أسباب الحروب**: تعدّدت دواعي الحروب و ذرائعها على اختلاف المراحل و الأزمنة مع ذلك لم تخرج في مجملها عن طابع السّيطرة و الرّغبة في التملّك حفاظا على البقاء، فكان أن قامت الحروب من أجل:

أ-الحرب من أجل الثروة: هو ما نجده مع الإمبراطوريّات القديمة الّتي خاضت شعوبها حروبا عديدة في سبيل الثّروة، مثال ذلك حروب الإسكندر الأكبر مع الإمبراطوريّة الفارسيّة.[9]

ب-**الحرب من أجل السّلطة**: كحروب الأمم الأوروبيّة الكبيرة على امتداد العالم في سبيل الحصول على السّلطة أو التوسّع فيها.

ت-**الحرب من أجل الأمن**: تقوم العديد من الدّول بإنشاء قوّات مسلّحة للدّفاع عن أراضيها خوفا من احتمال وقوع هجوم عليها.[10]

3-**أهداف الحرب**: يرى الجنرال كلاوزفتز(كارل فون)"أنّه ليس للحرب سوى غاية واحدة، و هي الغاية النّهائية، و ليس هناك أمر محسوم أو شيء ضائع حتّى يتمّ الوصول إلى هذه الغاية."[11]

سعت معظم الأمم الّتي شغلت ظاهرة الحرب حيّزا واسعا من نشاطها إلى تحقيق جملة من الأهداف الّتي لعلّ أهمّها:

أ-**السّيطرة و السّيادة**: عملت معظم الأمم على تحقيق أرقى شعور بالتّفوّق العنصريّ و السّيادة، و هو ما يبرز بوضوح لدى الإغريق الّذين أدّى اعتزازهم و رغبة التملّك فيهم إلى أن تكون علاقتهم ببقيّة الشّعوب علاقة تحكميّة لا ضابط لها.

ب-**العامل الاقتصاديّ**: يعدّ أهمّ العوامل المؤدّية إلى إشعال فتيل الحروب و الهدف الأكثر استراتيجيّة في الخطط الحربيّة يوازيه في هذا العامل السّياسيّ.[12]

يدّعي القادة العسكريّون في أغلب الأحيان قيام الحروب من أجل أهداف نبيلة و غايات سلميّة من شأنها نشر السّلام و بسط العدالة، لكن شتّان بين هاته الأهداف الزّائفة و ما يعكسه الواقع من نتائج مؤلمة و معاناة و بؤس.

إنّ البشريّة الّتي يؤذيها مشهد احتضار عجوز وفاه أجل محتوم هي نفسها الّتي تتقبّل مآسي الحروب و تذهب إليها مملوءة بالحماس، بل إنّ رجالها و ساستها المخطّطين يعدّونها أفضل اللّعب، كيف لا و قد أضحت عندهم ظاهرة طبيعيّة كالأكل و الشرب، و انتهاؤها يجلب الحزن كما شعر بذلك تشرشل مع قرب انتهاء الحرب العالميّة الثّانيّة إذ أحسّ و كأنّه مقبل على الانتحار.[13]

تبقى نتائج هذا الصّراع الفتّاك واحدة مهما اختلفت أنواعه و مسبّباته و أهدافه، إنّها السّيطرة و الرّغبة في التّملّك و إلحاق الأذى بالآخر قدر المستطاع. بهذا تظلّ الحرب الظّاهرة الأكثر ضبابيّة و سوداويّة من بين كل الظّواهر و لنا في الأدب خير رافد لها و راسم لمعالمها بفضل ما يتمتّع به من قدرات تخييلية تصويريّة.

فكيف تجلت هذه الظاهرة في الأدب و هل تعدّدت أوجه حضورها؟

هل أحسن الأدباء استثمار هذا الهذيان الواعي؟

4-**الحرب في الأدب العالمي:** يكشف تقصّي أدب الحرب عالميا أنّ تناول ظاهرة الحرب و نتائجها في معظم المجتمعات و الأمم ملأ الحياة الثّقافية برصيد حافل و متنوّع من المؤلّفات.

يزوّدنا التّاريخ بأحداث ساخنة عن الحضارة الإغريقيّة وسياستها التّوسّعية بين القرنين الرّابع قبل الميلاد و الأوّل بعد الميلاد، حيث كان طرفها الشّرقي الهند و الغربي إنجلترا. لقد استطاعت هذه الحضارة بسط سيطرتها و الحفاظ على سيادتها بفعل الحروب الّتي شملت معظم فترات تاريخها.(14)

يذكّرنا تاريخ الإغريق باثنتين من أشهر الملاحم، ملحمتي الإلياذة و الأوديسة اللّتين شغلت الحرب حيّزا كبيرا من أحداثها. يضطرنا الحديث عن الإلياذة إلى تذكّر حرب طروادة الّتي وقعت أحداثها في الفترة ما بين 1280-1183ق م كما نقلت كتب التّاريخ، وقد خلّد الشّاعر الإغريقيّ هوميروس ذكرها باقتطاع شذرة منها موضوعا لأناشيده الأربعة و العشرين المصاغة في ستّة عشر ألف بيت.

تبدأ هذه الحرب بهروب هيلين ملكة إسبرطة مع باريس بن بريام ملك طروادة و يتمّ بذلك إعلان الحرب على طروادة، و يستدعى بطل الأبطال أخيل للمشاركة في هذه الحرب الّتي يبدو جهله بخلفياتها ما اضطره للتّساؤل:

-" أيّة حرب يا رجل؟

-بين هيلاس و بين طروادة!

-و من آثارَها؟

-لقد سرق باريس بن بريام، هيلين ملكة إسبارطة

-سرقها؟ و لم تقتله الفاجرة؟

-فرّت معه، و لم تبالي بأن تلقي شرف هيلاس في الوحل."[15]

شكّلت هذه الحرب في البداية حياة البطولة و المجد و الشّرف، فجعلت الجميع يهتف بها و يقبل عليها لكن بمضي الأسطول الإغريقيّ إلى طروادة و توعّده بتدميرها تدميرا كليّا صار من تمنّوا قيامها يصدحون بنهايتها،" يا للهول! لا كانت هذه الحرب."[16]

تخلّلت هذه الحرب فترات من الصّراعات الدّاخليّة الّتي أَنْسَت القادة و الجنود هدفهم الرّئيسيّ حين جعلتهم ينشغلون بالملذّات ثم ينشقّون و ينقسمون، و لعل هذا ما بدا بين أخيل و أجامنون اللّذين تأجّجت نيران العداوة بينهما بسبب السبيّتين خريسيز و بريسيز، بل" أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرّائها في صدر القائد العام."[17]

ليقرّر أخيرا الانقطاع عن المعركة و الانعزال في معسكره و عدم الاشتراك في الحرب هو و جنوده. ويتواصل وصف الجوّ العام للحرب و الصّراع النّفسيّ الّذي أضنى النّفوس طيلة تسعة أعوام كلّها تعب و خطوب و أهوال اضطرتها للتّساؤل: "حرب! أيّة حرب هذه الّتي اشتعلت من هولها الرّؤوس شيبا."[18]

كما جعلت أجامنون القائد العام يرسل خطبة طويلة تفيض بالحقّ و تعترف بالواقع، بل تصلح لكل زمان و مكان لانطوائها على جانب كبير من الحكمة الّتي حريّ بالمتعطّشين والشّغوفين بالحروب الاحتكام إليها و وعي فحواها،" أيّة حرب هذه الّتي تؤدي بأعزّ المهج، و تذهب بأعزّ الضّحايا من نفوس الشّباب؟ بل أيّة حرب هذه الّتي توقع العداوة و البغضاء بين أخوين من أعزّ أبناء هيلاس، فيرشقان بالفحش من القول، و يتبادلان الهجر من الكلام و يوشكان أن يلتحما في نزال يودي بحياة أحدهما من أجل امرأة؟

" أنا –أجامنون – أغضب-أخيل أخي من لذّة طارئة، و متاع غير مقيم! يا للهول"

لتنته الحرب، لتنته الحرب ...و لنعد إلى هيلاس."(19)

كانت الإلياذة و لا تزال درّه عقد ما نظم الشّعراء في كل عصر و بلاد مهما تقدّم زمن هوميروس أو تأخر.[20]

إذا كان هذا الحال قديما فهو كذلك في العصر الحديث، فقد حافظ التّاريخ الحربيّ للغرب على دمويته حيث أمضوا أكثر من ألفي عام في حروب مستمرّة نهشت أواصرهم، و هو ما يؤكّده تاريخهم الّذي يظهر حروبا مستمرّة و تحالفات مضادّة عكستها جملة من الحروب الّتي امتدّت منذ الحضارة الإغريقيّة إلى القرن العشرين الّذي شهد ثلاث حروب: اثنتان ساخنتان و ثالثة باردة.[21]

لم تكن هذه الأحداث الدّامية لتمرّ من دون تدوين و استثمار احتضنه الأدب من خلال عديد المؤلّفات المختلفة الأجناس، الّتي لعلّنا نستحضر أهمّها روائيا-فيما نعتقد-من مثل ما كان لتولستوي و شولوخوف.

يحيلنا ذكر تولستوي إلى رائعته الحرب و السّلم الّتي ظلّت شامة لم تَزُل يوما و لا محت السّنون معالمها، فبقيت نجمة أضاءت سماء الأدب الغربيّ و لا تزال.

اتّسمت هذه الرّواية من خلال استثمارها لظاهرة الحرب بالتّعاقب القديم حيث جسّدت الصّراع و القلق الّذي عمّ أوروبا بعيد الثّورة الفرنسية، و شغلت أحداثها ألفي صفحة حواها جزءان عبّر الأوّل عن تحرّك رجال الغرب نحو الشّرق ليقتلوا أمثالهم، و روى الثّاني اندفاع قوّات اثني عشر شعبا أوروبيّا ضدّ روسيا.

ورد في الجزء الأوّل من الرّواية مقطع حواريّ دار بين بيير و الأمير أندريه فكان الآتي:

"...إنّنا الآن في حرب مع نابليون. لو أنّ هذه الحرب كانت حرب تحرير، لكنت أوّل من ينخرط في عداد المحاربين. أمّا أن تكون الحرب لمساعدة إنجلترا ضدّ أعظم رجل في

العالم فإنّ هذا لا يناسبني أبدا.

فقال الأمير أندريه:

-لو أنّ كل محارب يسير مدفوعا بمبادئ يؤمن بها لما وقعت حرب قط.

أجاب بيير: -و سيكون هذا رائعا للغاية."[22]

كانت هذه الرّواية أكثر الرّوايات انتشارا إذ أحسنت الإمساك بلحظة يعدّها الجميع الأكثر شرّا و عبثية و إن أبدوا خلاف ذلك، مع ذلك رأى بعض النقّاد أنّها لم تحقّق ما تطمح إليه التّفوس كونها "فوضى حبكتين روائيّتين و ليس لها من مركز وسط."[23]

تظهر غير بعيد عن تولستوي مؤلّفات ميخائيل شولوخوف الّتي تتناول جوهر موضوع الحرب مثلما ورد في روايته الدّون الهادئ حيث قدّم فيها وصفا لحالة البؤس والفقر و التّذمّر و الجوع الّتي كان عليها جنود القيصريّة في الحرب العالميّة الأولى، كما ساق وصفا أليما لجنود يحاربون من دون إيمان بالهدف و لعل المقطع الّذي دار بين كارانجيا وكريكوري يوضّح ذلك، " قال كارانجيا لكريكوري:

-حسنا علام تحاربنا، أنا و أنت هذا ما أريد أن أعرف؟

-لنفس السّبب الّذي حارب لأجله كل الآخرين.

-هاه! أنت أحمق! عَليَّ أن أجتزّ الأمر لك ثانية من أوّله إلى آخره، إنّنا نحارب من أجل البرجوازيين..و من هم هؤلاء؟ طيور على أشجار فاكهة.. نقاتل من أجل القيصر؟ ولكن من هو القيصر؟ إنّه نهّاب."[24]

يصبح الوضع أكثر عبثيّة و ضبابيّة عندما يصدر الكلام عن أحد المشاركين في الحرب. فقد نجد تبريرا لحال التّذمّر و النّقمة لكن ما لا يمكن تبريره أو التّساهل فيه هو فقدان الهدف في حرب تخوض غمارها و إلّا لما تخوضها أصلا، ولعل هذا ما يكشف طابع الفساد و الاستبداد الّذي ساد ذلك المجتمع حينها.

تبقى المؤلّفات المتّخذة من ظاهرة الحرب موضوعا و قناعا تسوق قناعات و تكشف خبايا و نوايا شريرة انطوت عليها أنفس لم تحلم يوما بالسّلم و الأمان. و قد أحسن المبدعون فيما نعتقد نقلها و تصويرها على الرغم من بشاعتها.

5-**الحرب في الأدب العربي:** عني الأدب العربي كغيره من آداب الدّنيا بظاهرة الحرب، و ظهرت حولها مؤلّفات و إبداعات متنوّعة الأجناس امتدّت على طول فترات التّاريخ العربيّ قديمه و حديثه.

أ-الحرب في الأدب العربي القديم: شغلت الحرب اهتمام العرب قديما فقد كان لدى الإنسان ميل إلى البأس و القوّة و الحرب، فحبّ الحرب غريزة متغلغلة في كيانه ومغروسة في طبائعه.

خاض العرب قديما حروبا عديدة كتلك الّتي دارت بين داحس و الغبراء، و الأخرى الّتي كانت بين الأوس و الخزرج، أو تلك الّتي عرفت بحرب البسوس. فالعرب كانوا أمّة حرب سبقت سيوفهم أيديهم خاصّة في المجتمعات الرّعويّة مع ذلك استعملوا الحكمة فيما عرض لهم من مشاكل و أحداث و لنا في قول زهير بن أبي سلمى ناصحا قومه خير مثال:

وَ مَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتُم وَ ذُقْتُم وَ مَا هُوَ بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ[25]

لقد كانت الحرب طبيعة فطرية فيهم حتّى أنّ منها ما دام سنينا عددا كحرب داحس و الغبراء الّتي ثارت بين عبس و ذبيان و دامت أربعين سنة لم تنتج لهم خلالها ناقة و لا فرس لاشتغالهم بالحرب، و قد كان سببها مراهنة بين قيس بن زهير و حمل بن بدر على داحس و الغبراء.[26]

تبدو أسباب الحروب العربية قديما متعدّدة و تطغى عليها النّزعة العصبيّة المملوءة أنفة، فلم يكن يهمّهم ما تلحقه هذه الحروب من ويلات و معاناة و دمار على رغم تقديرهم المسبق لذلك، و لعل هذا ما يجسّده قول أبي العتاهية:

كَأَنَّكَ عِنْدَ الكَرْبِ فِي الحَرْبِ إِنَّمَا تَفِرُّ عَنِ الكَرْبِ الَّذِي وَرَائِكَا[27]

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الحضور لم يقتصر على الشّعر فقط بل عكسته الخطب، والحكم، و الأقوال المأثورة الّتي يضيق المجال عن رصدها جميعا لذلك اكتفينا بالشّعر كونه ديوان العرب العاكس لكل حالاتهم و الحامل لمختلف أنّاتهم.

ب-الحرب في الأدب العربيّ الحديث: شكّلت البلاد العربيّة مسرحا توالت عليه حروب مختلفة عكست أزمة ثقافيّة عربيّة معاصرة تجاذبتها أطراف عدّة فانعكس أثرها في عديد الإبداعات الأدبيّة الّتي نقلت حال مجتمع الحرب البائس.

سنحاول رصد جملة من الإبداعات الّتي تناولت ظاهرة الحرب مركّزين على جنس الرّواية بوصفه المجال الّذي يستهوينا و سيتمّ ذلك من خلال وقوفنا على علاقة الرّواية بالحرب، فهل أدّى هذا التّلاقح إلى خدمة الأدب؟

يجب أن ندرك بداية أنّ الرّواية صارت ديوان العرب في العصر الحديث بفضل قدرتها الخلاّقة على كشف و فضح المستور،"إنّها شكل لمعرفة العالم جماليّا، و دراستها في سياقها الفنيّ دعوة إلى تناول علاقاتها مع علم جمال الفنّ العام"[28]، الّذي باستطاعته نقل بشاعة الحرب في نسق جماليّ مثير.

ليست علاقة الرّواية بالحرب عابرة أو سطحيّة بقدر ما هي عميقة و مُدرَكَة، فموضوع الحرب يؤمّن للرّواية عالما سحريّا يزخر بالأحداث السّاخنة ذات التّحوّلات المثيرة و القضايا الحيويّة، إنّ فضلها على الرّواية يتجاوز المستوى الدّلاليّ الّذي يعنى به الجميع إلى المستوى السّرديّ التّخييليّ المتضمّن لمختلف أشكال السّرد و صيغ القول، فلا وجود لحرب من دون قضيّة و لا وجود لقضيّة من دون قصص.[29]

بيّن إحصاء لفنّ الرّواية خلال الفترة ما بين 1956-1976 أنّ نسبة:

- 85 % من هذه الرّوايات موضوعها الرئيس الحرب و 15 % منها تمثّل الحرب خلفية العمل أو أنّها تشكّل أحد عناصره.

- 72% كتبها أدباء تقل أعمارهم عام 1976 عن الأربعين سنة، و 18% تزيد أعمارهم عن الخمسين و 10 % تزيد على السّتين.

- 90% كتبها أدباء من المشرق(سوريا– لبنان- مصر– الأردن– فلسطين...) و 10% كتبها أدباء من المغرب العربيّ.

- 38% دارت موضوعاتها حول حرب السّويس 1956، و 46% دارت حول حرب 1967 و 6% حول حرب 1973، و 10% حول الحرب اللّبنانية بين عامي1975-1976.(30)

يوضّح استقراء بعض النّصوص الرّوائية ذات الصّلة بموضوع الحروب العربيّة الإسرائيلية أنّه عقب هزيمة حزيران1967 تخلّى المبدعون و المفكّرون و النّقاد عن أوهام المرحلة الوطنيّة القوميّة فتوغّلوا في تشريح و انتقاد اختلالات المجتمعات العربيّة المفتقدة لأسس الصّراع الدّيمقراطيّ و حريّة التّعبير و الاعتقاد.(31)

راح الرّوائيون يحلّلون أسباب الهزيمة في إبداعاتهم من خلال نواح متعدّدة فظهرت عديد الرّوايات كــ: عودة الطّائر إلى البحر لحليم بركات الّتي لم تكن غير ردّة فعل رومانسيّة حزينة و مرثيّة دامية لما حدث في 1967.(32)

يتواصل الكشف عن سبب الهزيمة و البحث في عوامل انحسار المدّ العربيّ في روايات تلك الفترة الّتي أنتجت أدبا ينضح بالحياة السّياسيّة و العسكريّة، و الاجتماعيّة، والنّفسيّة كما بدا مع:

رصد هذا الجدول أهمّ عشر روايات استولت حرب 1967 على 50% من إنتاج الحرب فيها.[33]

الرّواية	الكاتب	أصله	تاريخ أوّل صدور
أنت منذ الآن	تيسير سبول	أردنيّ	1968
الكابوس	أمين شنار	أردنيّ	1968
عودة الطّائر إلى البحر	حليم بركات	سوريّ	1968
عائد إلى حيفا	غسّان كنفاني	فلسطينيّ	1969
أمّ السّعد	عسّان كنفاني	فلسطينيّ	1969
سداسيّة الأيّام الستّة	إيميل حبيبي	فلسطينيّ	1970
العرس الفلسطينيّ	أديب نحوي	سوريّ	1970
الأبتر	ممدوح عدوان	سوريّ	1970
أطول يوم في تاريخ مصر	السّيد الشربجي	مصريّ	1971
المتشائل	إيميل حبيبي	فلسطينيّ	1975

يبدو أنّه بالإضافة إلى انحسار المدّ القوميّ فقد عكس أدب 1967 هزيمة الفرد العربيّ حينها، و أغلب ما يلاحظ على روايات تلك الفترة أنّه عوض أن تستغل الطّاقة الإبداعيّة في رصد الظّواهر الإيجابيّة و العمل للاتّجاه الوحدويّ و الحيلولة دون اهتزاز الهويّة العربيّة راحت تغوص في الهزيمة و تنتهي عندها دون مغادرتها.[34]

يستمرّ الإبداع الفنيّ الّذي يستثمر الحرب(1967) بنفس الطّابع المأساويّ و الرّؤية السّوداويّة و هو ما يظهره المقطع الآتي:"كم تأخرّت حتّى اكتشفت أنّ هزيمة 1967 لم تكن الأولى، هل تذكر ما كنت أحدّثك به عن الانفصال؟ أجل كان الانفصال هزيمتنا الأولى...

-أنت تعرف قناعتي بأنّنا لم نهزم مرّة واحدة. فالحكّام هم الّذين انهزموا و نحن ندفع الثّمن. لا بأس علينا أن نصبر و نقاوم."[35]

يبدو واضحا أثر الانفصال المصريّ السّوريّ عام 1961 على مشروع الوحدة العربيّة، إذ استبدل بوحدة المصير الّتي كان نتيجتها هزيمة زلزلت كيان الفرد العربيّ.

تجدر الإشارة في هذا المقام إلى تأثير حرب 1967 على الأدب السّوريّ عامّة. ففي المسرح مثلا كانت الهزيمة عاملا مهمّا في اتجاه غالبيّة الكتّاب نحو المسرح السياسيّ، فالصّدمة الّتي تسبّبت بها الهزيمة كان لها أثر إيجابيّ في بزوغ صحوة فكريّة في أوساط هؤلاء الكتّاب الّذين برز من بينهم سعد الله ونوس.[36]

لا نغفل عن الإشارة إلى اتّساع مجال حرب 1967 الإبداعيّ عربيّا حيث صار يشمل الأدب الإسرائيليّ. فبعد 1967 تغيّرت الأحوال و ظهر سيل من الإنتاج الأدبيّ الّذي يعكس ردود فعل الانتصار الإسرائيليّ في هذه الحرب كقصائد إسحاق شيلاف الّتي تغنّت بتحقيق شعار أرض إسرائيل الكاملة. بالموازاة ظهرت بعض المؤلّفات العاكسة لتخبّط الجنود و تعذّبهم لعل أهمّها فيما نرى كتاب حديث المحاربين لسيّاح لوحاميم الصّادر في أكتوبر 1967 و الّذي طبع خمس مرّات، احتوى على ثلاثين محادثة اشترك فيها حوالي مائة و أربعين من أبناء المستعمرات. جاء فيه على لسان أحد المحاربين:"إنّني منذ أن وعيت لنفسي و أنا أذكر الحرب و الآن هذه هي المرّة الأولى الّتي نحارب فيها حربا حقيقيّة كجنود."[37]

نشأ بالموازاة لأدب حرب 1967 أدب خصّ حرب 1973، وبدت معالمه في عديد الأعمال الّتي شملت المشرق العربيّ كما المغرب الّذي لم تخل منه الجهود الرّوائية، الّتي أولت لهذه الحرب اهتماما من ذلك رواية رفقة السّلاح و القمر لـمبارك ربيع، حيث تجاوز فيها الإحاطة التّاريخيّة بالموضوع و راح يتخيّل ما كان يجري في الميدان بفضل الجهود الّتي بذلتها

الفرق المغربيّة بمعيّة نظيرتها السّوريّة و الفلسطينيّة في معركتهم مع العدوّ الإسرائيليّ.[38]

وُجد أيضا من ألّف سيرا ذاتيّة تمحورت حول أحداث حرب تشرين ، فظهر كتاب الوسام للإذاعيّ عادل النّادي، و جاء في مذكّرات حقيقية استرجعها صاحبها منذ كان جنديّا في صفوف المقاتلين في الجبهة فكانت حكايات واقعيّة لما جرى.[39]

أحدثت حرب 1973 هزّة في الواقع الإسرائيليّ على كافة الأصعدة، و راح المبدعون يكتبون عن الهزّة و الرجّة الّتي اختل لها التّوازن النّفسيّ و الاجتماعيّ و الأمنيّ للإسرائيليّين ما أدّى لمراجعة شاملة لكل المسلّمات السّابقة.

ظهرت خلال هذه الفترة أعمال صريحة عبرّت عن التّفسّخ الّذي أصاب المجتمع الإسرائيليّ بعد حرب 1973، إذ وصف بأنّه مصاب بمرض العُصاب كما تمّ رفض مسلسل الحروب كليّة و انتقدت الإيديولوجية الصّهيونية بحدّة خاصّة مع مائير شاليف الّذي تجرّأ و أنكر الأساطير اليهوديّة المتّصلة بخرافة فلسطين أرض الميعاد، بدا هذا في روايته عيسو الّتي طبعت إحدى عشرة مرّة.[40]

تجدر الإشارة للحرب اللّبنانيّة 1982 الّتي عنيت بها العديد من الرّوايات العربيّة خاصّة منها السّوريّة كـرواية الممرّ لياسين رفاعية و كذلك روايته رأس بيروت الّتي عالج فيها حرب 1982، و قد شكّلت تجاوزا كبيرا لما تناوله في روايته الممرّ بذلك اعتبرت إضافة هامّة للحرب عامّة و الحرب اللّبنانيّة خاصّة.[41]

و ليلة المليار لغادة السّمان الّتي اتخذت من الصّراع العربيّ الإسرائيليّ صيف 1982 حدثا مفصليّا.[42]

صار الشّرخ الّذي أحدثه الاجتياح بعد خروج إسرائيل شروخا عدّة نهشت ثقافة البلد، كيف لا و قد تركّز معظم الهجوم على المنشآت الثّقافية.[43]

تظل الحرب أكثر أفعال البشريّة شرّا و فتكا بكل المنجزات و القيم الّتي تظاهر الإنسان دوما بصونها و نشرها، إنّها-الحرب-لا تجلب سوى الدّمار و الحزن و المعاناة.

صدر عن عبد الرحماي ياغي اعتراف صريح بفضل حنّا مينه، جاء فيه: "و من بين هؤلاء الأدباء الّذين نحترمهم لمواقفهم هذا الكاتب الرّوائيّ المبدع حنّا مينه الّذي يشكّل حلقة مضيئة في خطّ الرّواية العربيّة الهادفة إلى خلق ثقافة عربيّة سياسيّة، اجتماعيّة توحّد الجماهير لتقف في وجه الظّلم و القمع و الاستغلال."(44)

يتمتّع حنّا مينه بسيرة عطرة تعدّ قدوة للطّامحين في تحقيق العدالة الاجتماعية و التّغيير الإيجابي، هذا ما يظهره التّقصّي المدرك لجملة أعماله على اختلاف أجناسها، مع ذلك سنصب الاهتمام على مؤلّفاته الرّوائية الّتي تضمّنت تناولا مباشرا و معمّقا لظاهرة الحرب، لعل أهمّها رواية المرصد.

تعرض هذه الرّواية قصة تحرير مرصد جبل الشّيخ في حرب تشرين 1973 المجيدة من العدوّ الإسرائيليّ و ما رافق ذلك من صعوبات و حقائق لعل أهمّها تكذيب أسطورة الجيش الإسرائيليّ الّذي لا يهزم، فعكست بذلك روعة الإنجازات الّتي حقّقتها الجبهة السّوريّة و كادت تأتي بالفوز و النّصر لولا تخاذل الجبهة المصرية و الخيانات الّتي علّقت النّصر لأجل غير مسمى. انطوت هذه الرّواية على كمّ مصطلحيّ هائل خصّ المعجم الحربيّ و هو ما تظهره الأدوات و الوسائل و مختلف العمليّات و المعارك الّتي يعكسها الجدول الآتي:

المصطلحات	تجليها و تمظهرها
الأسلحة والوسائل	مدفع-دبّابة-رشّاش-مسدّس-رادار-قنابل-طائرة-مدرّعات-سلاح جوّي-صواريخ-سفن بحرية...
أمكنة عسكريّة	كلّيةحربيّة-قاعدةعسكريّة-المعسكر-غرفةالقيادة- المرصد
شخصيّات و رتب عسكريّة	المقدّم-النّقيب-الملازم-الرّائد-الجنديّ-المقاتل-القائد...
ممارسات و أنشطة حربيّة	قتال-معارك-تفجير-اقتحام-ألغام-كمين-خطّة-تدريب-تعبئة-مقاومة-عمل حربي...

تجدر الإشارة إلى تواتر مصطلح الحرب في هذه الرّواية بنسبة عالية و في حالات متنوعة:

-الحرب من دون ارتباط تاريخي: تواترت بنسبة مائة و خمس عشرة مرّة.

-حرب 1948 تواترت خمس مرّات.

-حرب 1967 تواترت خمسا و سبعين مرّة.

-حرب 1973 تواترت مائة و سبعا و عشرين مرّة.

أمّا المعارك بوصفها أداة الحروب فطغت على كامل صفحات الرّواية و رصدت بنسبة تواتر تقدّر بمائتين و اثنتين و ستّين مرّة كلّها دامية.

تظهر رواية المرصد فيما نعتقد الرّواية الحربية الوحيدة من بين روايات حنّا مينه، و هو ما عزّزه الحضور القويّ و الفعّال و الحركيّ للمعجم الحربيّ، الشّيء الّذي جعل من الحرب في هذه الرّواية ظاهرة فاعلة في الفرد العربي.

يؤمن حنّا مينه بقناعة مفادها أنّه إذا كانت مهمّة الأدباء زمن السّلم هندسة النّفس البشريّة، فإنّها زمن الحرب تتحوّل إلى تحريضها على العمل بأقصى طاقاتها وفق هندستها السّابقة فيخلق بذلك إنسان مضحي في سبيل وطنه، و بهذا يكون الأدب قد أدّى دوره من خلال الكلمة و عمل على توعية الذّات البشريّة و شحنها و تفجير القوّة الكامنة فيها لمجابهة العدوّ.(45)

أسهم حنّا مينه بعد حرب 1967 في العمل البنّاء لتجاوز النّكسة و ذلك بعودته من منفاه الاختياري علّه يقدّم رؤية و يرسم أفقا يتمّ من خلالها تجاوز الهزيمة، فلم يركن للانهزاميّة و تجريح الذّات و ندب الزّمن كما فعل غيره بل سلك تيّارا معاكسا فضّل من خلاله مواصلة النّضال بالكلمة الّتي راهن على فعاليتها، فجاءت معظم مؤلّفاته إيذان بمواصلة النّضال و عدم اليأس و ضرورة الاستمرار رغم النّكسة و لعل هذا الحرص نلمسه في كتابه أدب الحرب الّذي تعرض فيه باستفاضة لأدب الحرب عند العرب قديما و حديثا، و كذلك في العالم مستدلّا في كل ذلك بشواهد إبداعيّة.

الخلاصـة:

أحسن الأدب الإمساك باللّحظة المناسبة لما عقدت الرّواية مع الحرب صرحا من التّلاحق الّذي عاد بالنّفع على الأدب.

علاقة الرّواية بالحرب علاقة الجزء بالكل، فالحرب ظاهرة من ظواهر السّيرورة الرّوائية بل إنّها حلقة جوهرية في بنية الأدب ذلك أنّ الحرب تجاوز للمألوف بفضل طابعها الحركيّ الّذي يؤمّن أنماطا سرديّة غير معهودة في مجال الأدب، كما يكشف عن قدرة الأدب في تحويل الحرب إلى صورة فنيّة جميلة خارقة لكل آفاق التّوقع، لكن كيف يتمّ ذلك و من خلال أيّ الوسائل.

الهوامـــش و المراجـــع

1 ابن منظور (جمال الدّين محمد بن مكرم)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مادة (ح رب).

2 الموسوعة العربيّة العالميّة، مؤسسة أعمال الموسوعة للنّشر و التّوزيع، الرّياض، ج9، ط2، 1999، ص162.

3 عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السّياسة، المؤسسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، ج1، ط4، 2001، ص 170.

4 سامي عوض، معجم المصطلحات العسكريّة، دار أسامة للنّشر و التّوزيع، عمان، ط1، 2008، ص 184.

5 عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السّياسة، ج1، ص170.

6 سيّار الجميل، الحرب ظاهرة تاريخيّة (مدخل من أجل فهم سوسيولوجيّ)، عالم الفكر، المجلس الوطنيّ للثّقافة و الفنون و الأدب الكويت، العدد2، المجلد36،2007، ص 22.

7 رفيق العجم، موسوعة مصطلحات علم التّاريخ العربيّ و الإسلاميّ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2000، ص282.

8 أنظر غاستون بوتول، الحرب أو أقصى درجات العنف، من كتاب العنف (دفاتر فلسفيّة–نصوص مختارة)، إعداد و ترجمة: محمد الهلالي و محمد لزرق، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 2009، ص44-45.

9 الموسوعة العربيّة العالميّة، ج9، ص162.

10 المرجع نفسه، ص 163.

11 رشيد حمليل، الحرب و الرّأي العام و الدّعاية، ص43.

12 ينظر خالد رمزي البزايعة، جرائم الحرب في الفقه الإسلاميّ و القانون الدّوليّ، دار التّفائس للنّشر و التّوزيع، الأدرن، ط1، 2007، ص60-62.

13 إبراهيه أبو خزام، الحروب و توازن القوى(دراسة شاملة لنظرية توازن القوى و علاقتها الجدلية بالحرب و السّلام)،دار الكتاب الجديدة المتّحدة، بيروت، ط2، 2009، ص248.

14 ينظر أرنولد ثوينبي، حرب و حضارة، ترجمة: غياث حجار، دار الاتحاد، بيروت، 1993، ص143-144.

15 هوميروس، ترجمة : دريني خشبة، دار العودة ، بيروت، ط6، 2001، ص50.

16 المرجع نفسه، ص 55.

17 ينظر المرجع نفسه، ص78-79.

18 المرجع نفسه، ص84.

19 ينظر هوميروس، الإلياذة، ص84-85.

20 إلياذة هوميروس، ترجمة: سليمان البستاني، ج 1، ص28.

21 حازم الببلاوي، نحن و الغرب عصر المواجهة أم التّلاقي، دار الشّروق، القاهرة، ط 1، 1999، ص16.

22 ليو تولستوي، الحرب و السّلم، دار و مكتبة الهلال للطباعة و النّشر و التّوزيع/ دار البحار (بيروت)، ج1، ص48-50.

23 عبد السّتار جواد، صنعة الرّواية، دار مجدلاوي للنّشر و التّوزيع، عمّان، ط2، 2000، ص45.

24 نجاح العطار و حنّا مينه، أدب الحرب، دار الآداب، بيروت، ط2، 1979، ص 114.

25 محمد العيد الخضراوي، شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس و الخزرج، مؤسسة علوم القرآن /دار القلم (دمشق- بيروت) ط1، 1980، ص 183.

26 ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تقديم: خليل شرف الدّين، دار و مكتبة الهلال، بيروت، المجلد 5، الطّبعة الأخيرة، 1999، ص94.

27 ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، مجلد 1، ص69.

28 عبد الله أبو هيف، اتّجاهات النّقد الرّوائي في سوريّة (دراسة)، منشورات إتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2006، ص252.

29 أنظر سامي سويدان، فضاءات السرد و مدارات التّخييل- الحرب و القضيّة و الهويّة في الرّواية العربية، دار الآداب للنّشر و التّوزيع، بيروت، ط1، 2006، ص11-12.

30 أنظر إلهام غالي، غادة السمّان (الحبّ و الحرب دراسة في علم الاجتماع الأدبيّ)، دار الطّليعة، بيروت، ط1، 1986، ص13-14.

31 عبد الرّحمان ياغي، البحث عن إيقاع جديد في الرّواية العربية، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1999، ص17.

32 مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرّواية، عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون و الأدب، الكويت، العدد188 أغسطس/ أب 1994، ص184.

33 إلهام غالي، غادة السمّان (الحبّ و الحرب دراسة في علم الاجتماع الأدبيّ)،ص16.

34 مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرّواية، عالم المعرفة، ص174.

35 أنظر نبيل سليمان، هزائم مبكّرة، دار الحوار للنّشر و التّوزيع، سورية، ط3، 1994، ص10-11.

36 ينظر غسّان غنيم، المسرح السياسيّ في سوريا 1967-1990، منشورات دار علاء الدّين، دمشق، ط1، 1996، ص56-58.

37 ينظر رشاد الشّامي، متاهات الأدب و الفكر الإسرائيليّ، الدّار الثّقافية للنّشر، القاهرة، ط1، 2006، ص83-86.

38 عبد الرّحمان ياغي، البحث عن إيقاع جديد في الرّواية العربيّة، ص153.

39 يوسف نوفل، تجليّات الخطاب الأدبيّ، دار الشّروق، بيروت، ط1، 1997، ص221.

40 ينظر رشاد الشّامي، أدب ما بعد الصّهيونية، مجلة سطور، القاهرة، العدد 38، يناير 2000، ص35-38.

41 نبيل سليمان، جماليّات و شواغل روائيّة، منشورات إتحاد الكتّاب العرب، دمشق،2003،ص103.

42 المرجع نفسه، ص89.

43 يمنى العيد، الكتابة تحوّل في التّحوّل(مقاربة للكتابة الأدبيّة في زمن الحرب اللّبنانيّة)، دار الآداب، بيروت، ط1، 1993 ص29.

44 عبد الرّحمان ياغي، البحث عن إيقاع جديد في الرّواية العربيّة، ص 159.

45 ينظر نجاح العطار و حنّا منيه، أدب الحرب، ص 36-37.